

Rachid Khadiri**

رشيد الخديري*

مراجعة كتاب: المشاكلة والاختلاف

قراءة في النظرية النقدية العربية وبحث في الشبيه المختلف

Book Review: *Similarity and Differences*

A Reading in Arab Critical Theory and Inquiry into the Dissimilar Similar

عنوان الكتاب : المشاكلة والاختلاف، قراءة في النظرية النقدية العربية وبحث في الشبيه المختلف.

المؤلف : عبد الله الغدامي.

مكان النشر : بيروت - الدار البيضاء.

تاريخ النشر : 1994.

الناشر : المركز الثقافي العربي.

عدد الصفحات : 192 صفحة.

مقدمة

تتميز كتابات الغدامي بالمغايرة والاختلاف، فهي حفريات عميقة في الثقافة العربية، انطلاقاً من مقترحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي؛ ذلك أنه يحمل مشروعاً نقدياً جرى تثبيته في عدد من المؤلفات والكتب. وعلى الرغم من اختلاف عدد من الدارسين معه في كثير من أفكاره وتصورات، فهو مشهود له بالكفاءة والخبرة والنجاة، ومدافع متمرس عن مشروعه الفكري والنقدي. وكتابه الذي هو قيد المحاوره والمدارسة يدخل ضمن سياق فاعلية القراءة من أجل بناء نظريات عربية جديدة لا تلغي التراث،

يُعدّ عبد الله الغدامي علامة بارزة في النقد العربي الحديث، يرجع له الفضل في شيوع النقد الثقافي عربياً، بفضل العديد من كتبه التي بحثت في الأنساق الثقافية العربية، بخاصة كتابه الذي صدر سنة 2000 النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، فضلاً عن مؤلفات أخرى لا تقل أهمية، وهو أستاذ في النقد والنظرية في كلية الآداب، بقسم اللغة العربية في جامعة الملك سعود بالرياض.

* باحث وشاعر مغربي مهتم بالتراث النقدي عند العرب.

** Moroccan poet and researcher interested in the Literary criticism.

أجل الوصول إلى أعمال بحثية تتجاوز السائد والمستهلك.

تشكّل الأطروحة العامة للكتاب من ثنائية «المشكلة والاختلاف»، وتتفرّع منها مجموعة من القضايا والتصورات حول الثقافة العربية، وفي تناول ذلك، تحقيق لمجموعة من الأهداف، نذكر منها:

- تجسير العلاقة بالتراث النحوي واللساني العربيين، من خلال استلهم رموزه وأعلامه واستنطاق بعض الشواهد بغية بناء نظرية عربية جديدة.
- مساءلة التراث في ضوء المعارف الجديدة، والمساهمة في تحريك مياه البحث والتتبع والتقصي لمصادره الكبرى، في أفق المحاوره والتثاقف مع الغرب.
- مراجعة تاريخ الدرس النحوي العربي، والكشف عن أنساقه وبنياته وأكوانه الدلالية.

الأطروحتان الأساسيتان للكتاب

يتكوّن الكتاب المذكور من مقدمة وقسمين، ثمّ يتطرق المؤلّف في القسم الأول منه إلى ثنائية «المشكلة والاختلاف» التي شغلت حيزاً مهماً من التفكير النحوي العربي، بخاصة عند النقاد والدارسين العرب القدامى؛ من أمثال عبد القاهر الجرجاني، وابن رشيق، وأحمد بن محمد الجرجاني، وغيرهم. ومن ثمّ، شكلت هذه الثنائية العصب الأساسي في تكوين الدرس البلاغي والنقدي والنصوي واللساني العربي. ومن خلال قراءة متأنية لمفاصل الكتاب وأطروحاته، يمكننا القول إنّ جدلية اللفظ والمعنى، شكّلت النواة الأساسية التي

وإنما تُماحكه وتُسائله في ضوء النظريات النقدية الجديدة، بخاصة تلك التي ظهرت في فترة ما بعد البنيوية.

الإطار العام للكتاب

درج الناقد السعودي عبد الله الغدامي في معظم مؤلفاته وكتبه النقدية على اختيار «إستراتيجية الاختلاف» في تناول القضايا النقدية والبلاغية واللسانية العربية، ومردّد هذا الاختلاف - في تصوّرنا - هو الاشتغال في محفل نقدي مختلف عمّا ألفتّه الدراسات العربية في كلّ ما يتعلق بالنص والقراءة والتأويل والتلقي والنقد والتنظير، وغير ذلك من الحقول المرتبطة بثقافتنا العربية. يقول الغدامي في كتابه تأنيث القصيدة والقارئ المختلف: «لعل القارئ يجد نفسه مفتوحةً للاختلاف معي ومزيد من الاختلاف» (ص 103). وإنّ ما نعنيه حقّاً، من خلال هذه الإستراتيجية التي تبنّاها الناقد منذ بواكير البداية، تتمثّل في طرائق الاشتغال والحفر في الذاكرة النصّية الأدبية ممّا هو قمين بأحداث خلخلة في المفاهيم والتصورات. والكتاب الذي نحن بصدده لا يخرج عن رهان الاختلاف والمغايرة في مشروع الغدامي النقدي، علماً أنه مشروع نقدي بدأت إرهاباته الأولى منذ عام 1985؛ أي تاريخ أول إصدار له، وهو كتاب الخطيئة والتكفير: من البنيوية إلى التشريحية، نظرية وتطبيق، مروراً بعدة أعمال نقدية قيّمة، وصولاً إلى كتابه المثير للجدل النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية. وإنّ ما نرمي إليه هو أنّ قراءة هذا الكتاب لن تستقيم إلا في ضوء تصورات وآراء هذا الناقد، ذلك أنّ هناك مشروعاً نقدياً يجري بناؤه على أسس من المفارقة والاختلاف والمغايرة؛ من

ما نستشعره من خلال هذين البيتين، بالنسبة إلى قضية المشاكلة في المعنى، هو حالة الانقسام بين الدارسين ودور الألفاظ في هذا المجال اللساني اللغوي النقدي. فقد رأى ابن طباطبا، مثلاً، أنّ البيتين حسنين، لكن لو وُضع مصراع كل واحد منهما في موضع آخر لكان أشكل وأمتن نسجاً؛ ونعني بذلك الجمع بين الشيء وشكله، ومن ثمّ يمكننا إعادة صوغ البيتين على النحو التالي:

كأنّي لم أركب جوادًا ولم أقل

لخيلي كرى كره بعد إجمال

ولم أسبأ الزق الروي للذّة

ولم أبتن كاعبًا ذات خلخال

تقع المشاكلة من خلال الجمع بين الجواد والكرّ في بيت، ثمّ الجمع بين الخمر والنساء في بيت آخر على أساس عقلي. في حين يذهب رأي آخر إلى المشاكلة اللفظية البيانية الذوقية، وهو ما تنبّه له الجرجاني حين قال بمبدأ الجمع بين شدة الاختلاف وشدة الائتلاف. إننا أمام مبدأين في القراءات النصوصية، واحد يقول بإمكانية الجمع بين الشيء وشكله، أي «منطق المعنى»، وهو يتجسد من خلال التوافق في الألفاظ (الجواد والكرّ) في بيت واحد، ثمّ (النساء والخمر) في بيت آخر، لتتحقق المشاكلة على أساس استواء في النسج. ولو أنّ ناقدًا، مثل ابن رشيق، حاول تبرير قول امرئ القيس عن طريق الاحتجاج بـ «مستعمل العادة»، كأنّ نُفسر مثلاً الصيد باللذة، وهذا ما جرى عليه لسان العلماء، فإنّ هذا القول - بحسب الغدامي - غير صائب، لأننا أمام مشكلة تركيبية دلالية لا يجوز فيها اللجوء إلى مستعمل العادة. أمّا الجرجاني، فقد تبني خيار

يُبنى عليها، وإنّه يتفرّع منها مجموعة من الدوال الصغرى، هي:

1- المشاكلة والاختلاف

يقول عبد القاهر الجرجاني: «مفاتيح العلوم مصطلحاتها»⁽¹⁾، وهو يعني بذلك أنّ التدقيق في المفاهيم والمصطلحات من شأنه الفهم والتدبر والتأطير. والمشاكلة، بوصفها مفهومًا بلاغيًا، تدلّ على المماثلة والمشابهة والمطابقة، وهي كلّها مفاهيم تعني «ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو تقديرًا»⁽²⁾، وهو مفهوم اتسع عند المحدثين ليشمل اللفظ المضاد أو المناسب. والمشاكلة نوعان: لفظية، وهي تظهر تحقيقًا في الألفاظ والمفردات كقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ (المائدة: 116)، وعقلية، وهي تُفهم بالعقل، ويكون فيها المعنى مقدّرًا كقوله تعالى: ﴿صَبَّغَةَ اللَّهُ﴾ (البقرة: 138)؛ أي التطهير والغسل بالإيمان. وفي هذه الحال يمكن استحضار طقس المعمودية الشائع في الديانة المسيحية، ويتمّ هذا الاستحضار للقرينة والتوافق والمصاحبة.

يخوض هذا الكتاب في هذه القضية انطلاقًا من تصورات الدارسين القدامي حولها؛ من أمثال الجرجاني، وابن رشيق، وابن طباطبا، وأحمد بن محمد الجرجاني، وغيرهم. وقد أدرج الباحث لهذا الأمر شواهد شعرية للكشف عن آراء الدارسين وتصوراتهم. وفي هذا السياق، تمّ التمثيل ببيتين للشاعر الجاهلي امرئ القيس، هما:

كأنّي لم أركب جوادًا للذّة

ولم أبتن كاعبًا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل

لخيلي كرى كره بعد إجمال⁽³⁾

غير أنّ هذا الانحياز إلى المعاني لدى الجرجاني، ينتج منه نوعٌ من التصدع، انطلاقاً ممّا تناولناه في النقطة السابقة، وهي تتعلق بأنّ النص له الأسبقية، في حين أنّ المعاني تأتي في المقام الثاني، وبناءً على ذلك، فإنّ النظرية الجرجانية حاولت - قدر الإمكان - تغليب المعاني على الألفاظ إلى درجة السيطرة على الفكر واللغة والتركيب والدلالة، ومن الجليّ القول إنّ مسألة اللغة والفكر قد سيطرت على تفكير العلماء، عرباً وغير عرب، في تناول القضايا اللسانية والبلاغية والنحوية، على أساس أنّ الألفاظ أوعية للمعاني، وهي من دون شك تتبع المعاني في مواقعها. ومن ثمّ، فإنّ الجرجاني في نظريته حول النظم، يتوخى «ترتيب المعاني في النفس ثمّ النطق بالألفاظ على حدوها»⁽⁶⁾. وهذه المهيمنات لم يتخلص منها إلا حين هجس بفكرة «معنى المعنى»، أو الأثر والدلالات التي تنتج من النص.

إنّ هيمنة المعنى هو أحد تجليات التفكير في التصور اللغوي القديم، وقد اتفق في أنّ اللغة وعاءٌ للفكر، وتعبير عنه، مع الإقرار أنّ مفهوم اللغة يتطور بتطور النظريات، على نحو انتقلت فيه من مفهومها النفعي التواصلي إلى مفهوم تفاعلي تكاملي مع الفكر؛ إذ لا يمكن الفصل بينهما، ولا وجود لفكر من دون لغة، كما أنّه لا وجود للغة من دون فكر. غير أنّ هذه العلاقة التكاملية تستوجب بنيةً لسانية تُحدّد هذه اللغة بما هي «أصوات دالة بتواطؤ»⁽⁷⁾ بتعبير الإمام الغزالي. وهنا، نتحدث عن البنية الصوتية، ومنها تقوم الكلمات في شكل بنية معجمية. وهناك بنية ثالثة تتمثل في تأليف الكلمات في جملٍ نحوية؛ هي البنية التركيبية، ويتمخض عن

الجمع بين المتنافرات كفعل قرائي يحفز على النظر إلى اللغة والتركيب والفكر ومشكلات المعنى في النص الأدبي. وبناءً عليه، فإنّ المبدأ الأول يأخذ بمنطق المعنى، والمبدأ الثاني يأخذ بالأثر، والمعنى سابق للنص، في حين أنّ الأثر لاحق به ونتج منه.

إنّ القضية مرتبطة أساساً بمشكلات المعنى وتجلياته في النص الأدبي من جهة، ثمّ ببنية اللغة والتركيب الدلالي من جهة أخرى، صحيح أنّ ظاهرها جمالي بلاغي نصوصي، لكنها تتغلف بما هو تركيب دلالتي لساني (نجد بذرتها الأولى في المتون العربية)، على أنّ الجرجاني طوّرها، مستعملاً في ذلك أدوات قرائية جديدة. فهو قد قام بتحويل الدلالة من واقعها المعطى المعروف إلى دلالة توليدية تؤدي إلى المشاكلة بين المختلفات.

2- اللغة والفكر والبنية

تؤسّس البلاغة العربية في كليّاتها على ثنائية «اللفظ والمعنى»، وقد توقف الباحث عند هذه الإشكالية على امتداد مفاصل الكتاب، إذ جرى الدرس النحوي والبلاغي في نقاش طويل حول ذلك، وإن كان الجرجاني، من خلال نظريته المتعلقة بالنظم، قد حلّ هذه الإشكالية عبر «توخي معاني الكلم»⁽⁴⁾. فليس النظم شيئاً آخر سوى «توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه في ما بين معاني الكلم»⁽⁵⁾.

ظاهرياً، يبدو أنّ هناك تغليباً للفظ على المعنى، لكنّ «توخي المعاني» يجعل الألفاظ بالضرورة تابعةً للمعاني، لاحقةً بها، وهذا ما صرح به الجرجاني في أكثر من موضع حين جعل المعاني هي الأولى والألفاظ خادمةً لها.

العربي، غير أن ذلك لا يمنع من الخوض فيها بطريقة مغايرة وجديدة ومُثرية للنقاش، وما هذا الكتاب إلا محاولة للتجاوز مع مفرزات القدامى والرغبة في تأسيس نظرية جديدة.

ذلك كله بنية دلالية، هي مفرزات السياق من معانٍ ودلالات.

تركيب

في هذا الكتاب، يسعى الباحث إلى مقارنة الرأي بالرأي، والفكرة بالفكرة من أجل الوقوف عند إبدالات اللسانية النصية العربية، بخاصة على مستوى بناء المعنى ومشكلات التركيب في النحو العربية، مركزاً تركيزاً كبيراً على مساهمات الجرجاني في هذا المجال، ذلك أن هناك قضايا وتصورات تجري في مصطرع لغوي وبلاغي يتحرك باستمرار، فضلاً عن إمكانيات الاسترفاد من نظريات الدارسين القدامى بغية تحقيق نوع من التواءم بين القديم والمحدث.

لقد أشرنا في البداية إلى أن هذا الكتاب لا يمكن تجزئته أو فصله عن السياقات الأخرى. فهناك مشروع يتشكل ويتطور وفق إستراتيجية الاختلاف في فهم الثقافة العربية في كل تجلياتها وأنساقها. صحيح أن قضية اللفظ والمعنى قد أخذت مساحةً شاسعةً من الدرس النحوي والبلاغي

الهوامش

- (1) هذه العبارة مقولة شائعة لدى النقاد العرب القدامى، وهي تُنسب إلى عبد القاهر الجرجاني. للاستزادة، انظر: عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات (تونس: مطبعة كويت، 1997)، ص 52؛ وانظر: الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ (بيروت: منشورات الآفاق الجديدة، 1982)، ص 13.
- (2) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح محمد عبد المنعم الخفاجي، ط 5 (بيروت، دار الكتب العلمية، 1980)، ص 327.
- (3) ديوان امرئ القيس، ضبط وتصحيح مصطفى عبد الشافي (بيروت: دار الكتب العلمية، 2004)، ص 127.
- (4) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد رضا (بيروت: دار المعرفة، 1978)، ص 277.
- (5) المرجع نفسه، ص 403.
- (6) المرجع نفسه، ص 41.
- (7) عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير: من البنيوية إلى التشريحية، نظرية وتطبيق (جدة: النادي الأدبي الثقافي، 1985)، ص 44.

References

- البوشيخي، الشاهد. مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ. بيروت، منشورات الآفاق الجديدة، 1982.
- الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز. تحقيق محمد رشيد رضا. بيروت: دار المعرفة، 1978.
- ديوان امرئ القيس. ضبط وتصحيح مصطفى عبد الشافي. بيروت: دار الكتب العلمية، 2004.
- الغذامي، عبد الله. الخطيئة والتكفير: من البنيوية إلى التشريحية، نظرية وتطبيق. جدة: النادي الأدبي الثقافي، 1985.
- القزويني، الخطيب. الإيضاح في علوم البلاغة. شرح وتعليق وتنقيح محمد عبد المنعم الخفاجي. ط 5. بيروت، دار الكتب العلمية، 1980.
- المسدي، عبد السلام. مباحث تأسيسية في اللسانيات. تونس: مطبعة كويت، 1997.

المراجع